

## الفصل السابع

### طليحة وغزوة البرازحة

باعث عبس وذبيان وبنو بكر ومن آزرهم في مهاجمة المدينة بعار الهزيمة ، فانحازت إلى طليحة بن خويلد الأسدي . وانضم إلى هؤلاء قبائل طي وغطفان وسليم وما جاورها من أهل البادية الواقعة شرقي المدينة وإلى شمالها الشرقي . وكانوا جميعاً يقولون ما يقوله عيينة بن حصن ومن معه من بني فزارة : « نبي من الحليين - يعنون أسداً وغطفان - أحب إلينا من نبي من قريش . وقد مات محمد وطليحة حي » .

ولم يكن هؤلاء في ريب من أن أبا بكر سيتجهز لهم ويحاربهم . لكنهم أصروا على مناهضته ، وعلى متابعة طليحة ، تمرداً على سلطان المدينة ، وحرصاً على استقلالهم ، واستكباراً أن يؤتوا الزكاة ، إذ هم يرونها إتاوة يؤديها التابع للمتبوع . وكان طليحة يقيم بسميراء ، ثم انتقل منها إلى برازحة بحسبها أمنع موقعاً وخيراً في الحرب مكاناً .

تنبؤ طليحة بن  
خويلد الأسدي

وطليحة لم يتنبأ بعد موت رسول الله ، بل تنبأ في العهد الأخير من حياته ، شأنه في ذلك شأن الأسود العنسي ومسلمة . وهو لم يدعُ العرب إلى العودة لعبادة الأصنام ، كما لم يدعُهم غيره من المنتبين إلى العودة لعبادتها . لقد قضى محمد على هذه الوثنية في بلاد العرب قضاءً مبرماً ، فامتدت دعوة التوحيد إلى أنحاء شبه الجزيرة جميعاً ، واستقرت في النفوس استقراراً جعل التفكير في الأصنام ضرباً من الهذيان يستحي منه كل إنسان . وإنما زعم أولئك المنتبين أنهم يوحى إليهم كما يوحى إلى محمد ، وأن الملك يأتيهم من السماء كما يأتي محمداً . وقد حاول بعضهم محاكاة القرآن فيما أوهم أنه يوحى إليه ، وحفظت الروايات لنا صوراً لما زعموا من ذلك يصعب القطع بصحة نسبتها . فهي من السخف بحيث يتعذر على أي إنسان أن يتصور كيف يرضى منتبئاً إذاعتها باسمه في الناس ، وكيف يُقبل الناس عليه أو يتبعونه حين يرونه ينسب هذا الهذر إلى

الوحي ويدعى أنه من كلام رب العالمين . وحسبُك أن تتلو ما قيل أن طليحة زعم أنه أوحى إليه لترتاب في أن يدعيه رجل تجتمع العرب حوله ، ثم يكون له من بعدُ في الإسلام مواقف لا يزال يحفظها التاريخ عن وقائع الفتح في إبان عهد عمر بن الخطاب . وما تذكر الروايات عما زعم طليحة أنه أوحى إليه قوله : « والحمام واليمام ، والصرد الصوم ، قد صُمن قبلكم بأعوام ، ليلغن ملكنا العراق والشام » .

ما يزعم طليحة أنه يوحى إليه

لقد طالما قرأنا عن سجع الكُهَّان في الجاهلية . وكلنا نذكر أن قريشًا حاربت محمدًا بأنه كاهن ، وبأن ما يوحى إليه هو بعض هذا السجع . ولقد استبان لمن عاصروا النبي أن هذه الدعاية هُراء حين توجَّه إلى القرآن ، ثم استبان للعرب وللناس جميعًا أن القرآن معجزة محمد ، لن يستطيع الإنس والجن أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا . ولقد كان طليحة كاهنًا ، كما كان العنسي كاهنًا . أفهذا السجع الذي ادَّعَوْه وحيًا كان من سجع الكهان ؟ ! لئن صح ذلك لقد كان هؤلاء الكهان طرازًا من المشعبذين أعجب طراز ، ولقد كان ما ينسب إليهم من الحكمة مما يزرى بالحكمة .

وسواء أصبحت نسبة هذه الأقوال إلى طليحة أم لم تصح فإنه قام يدعو إلى آراء لم يحفظ لنا التاريخ منها شيئًا يذكر . وكل ما يحدثنا به أنه أنكر الركوع والسجود في الصلاة ، وقال إن الله لم يأمر أن تمرغوا وجوهكم في التراب ، أو أن تقوسوا ظهوركم في الصلاة . فإن يكن ما نسب إليه من ذلك صحيحًا فلعله نقله عن الصلاة عند المسيحيين . وإنما ترجع قلَّة ما بقي لنا من آثار طليحة ومُسَيْلمة وأضرابهما إلى مثل السبب الذي ترجع إليه قلة ما لدينا عن الأصنام ؛ فقد عفى المسلمون الأولون على ذلك كله ، ولم يفكر أحد منهم في تدوينه أو روايته ، ولم يدون من بعدُ إلا ما عدَّ تدوينه تأييدًا للدين القيم . وأنت تعرف أن المسلمين لم يدونوا في الصدر الأول شيئًا إلا ما كان من جمع أبي بكر كتاب الله . فأما جمعُ السنة والحديث فقد حدث بعد القرن الأول ، وقد اقتضى العاملين عليه من المشقة ما لم يهونه إلا عظيم الرجاء في ثبوت الله عنه . فلا عجب وذلك هو الشأن أن تخامرنا الريبة في كثير من الروايات عن طليحة

موقف المسلمين من آثار المنتهين

وغيره من المنتهين ، وبخاصة إذا لم تتفق هذه الروايات والمعروف من حياة العرب في حضرهم وبدوهم ، ولم تتسق مع ما يتصل بها من الأحداث والشئون .

محمد يأمر بقتال  
المرتدين في بني  
أسد

تنبأ طليحة في بني أسد ، كما تنبأ الأسود في اليمن ومسيلمة في اليمامة ، في حياة النبي . هناك وجه محمد ضرار بن الأزور إلى عمّاله على بني أسد يأمرهم بالقيام على كل من ارتد . ونزل المسلمون وآرِدات ، ونزل طليحة ومن معه سميراء . وكان عدد المسلمين يزداد ، وعدد المرتدين ينقص ، لتواتر الأنباء عن نصر المسلمين في شتّى الميادين ، حتى همّ ضرار بالسير إلى طليحة لمقاتلته . ولقد سبقه أحد المسلمين يريد أن يُريخ من هذا النبيّ فصر به بالسلاح فنبأ عنه ولم يُصبه . وأسرع المحيطون بطليحة فأذاعوا هذا الأمر في الناس وجعلوا يقولون إن السلاح لا يجوز في نبيّهم . وأن المسلمين ليتجهّزوا لمواجهة هذا الموقف إذ جاءهم النبأ بوفاة رسول الله ، فاضطربوا وتناقص عددهم ، وهرع الكثيرون منهم إلى طليحة يتابعونه ويؤيدونه . فلما انحازت إليه عبّس وذبيان بعد أن هزمهم أبو بكر بذى القصة استغلظ أمره وظنّ أن لن يغلب .

اجتمع إلى عبس وذبيان من القبائل ما زاد طليحة قوة . ذلك أن أسدًا وغطفان وطليحة كان بينهما حلف في الجاهلية من قبل أن يُبعث رسول الله ، ثم إن أسدًا وغطفان اجتمعتا على طيها فأجلوها عن ديارها ، وانقطع بذلك ما بينهما وبينهما . فاما مات رسول الله قام عبيسة بن حصن الفزاري في غطفان فقال : « ما أعرف حدود غطفان منذ انقطع ما بيننا وبين بني أسد . وأنى نجد الحلف الذي كان بيننا في القديم وتتابع طليحة . والله لأن نتبع نبيًا من الخلفين أحب إلينا من أن نتبع نبيًا من قريش . وقد مات محمد وبقي طليحة » . وتابع عبيسة قومه على رأيه ، فاشتدت بهم شوكة المرتدين حتى فرّ من كان بينهم من المسلمين إلى المدينة .

عبيسة بن حصن  
الفزاري يؤيد  
طليحة

اجتمعت هذه القبائل في براحة معلنة ردتها وخروجها على سلطان المدينة . ونهياً أبو بكر فعقد الأولوية لقتالهم ، وبعث إليهم ، كما بعث إلى غيرهم من أهل شبه الجزيرة ، بكتابه يهددهم فيه بالقتال والقتل إن لم يعودوا إلى حظيرة الإسلام .

وكان خالد بن الوليد هو الموكل بطليحة وبمالك بن نويرة من بعد . فهل أسرع بالسير إليه ليناجزه وليناجز معه كل هذه القبائل ؟ كلا ! بل أذاع أبو بكر أنه خارج بنفسه على رأس جيش إلى تخيبر حتى يلاقى خالداً فيُعينه على جموع المرتدين . ثم إنه طاب إلى عدى بن حاتم ، وكان قد جاء بالزكاة إلى المدينة كما أسلفنا ، أن يذهب إلى قومه طيبي بخوفهم عاقبة أمرهم إذا أصرروا على ردتهم . ولم يقصد خالد إلى البزاجة من فوره ، بل جنح إلى أجا وأظهر أنه خارج إلى خيبر لينضم إلى جيش الخليفة ثم ينصب الجيشان على البزاجة . وبلغ عدى قومه وقد ذاعت هذه الأنباء في الناس .

سياحة أبي بكر  
التفريق بين طيبي  
وجلفائها

وتحدث عدى إلى بني طيبي يدعوهم ليرجعوا إلى الإسلام ، وليكونوا مع أبي بكر صفاً قالوا : « لا نتابع أبا الفصيل أبداً » . وأبا الفصيل كنية أراد خصوم الصديق أن يسخروا بها من كنيته أبي بكر . هنالك قال عدى : « لقد أتاكم قوم ليسببوا حرمةكم ، ولتكننهم بالفحل الأكبر ، فشانكم به » . وذكر لهم من عدة المسلمين وعددهم ما روعهم وأفرعهم وأراهم الفصيل فحلا حقاً . وأنى لهم أن يرتابوا في حديث عدى وقد هزم أبو بكر عبساً وذبيان ومن ناصرهما حين كانت جيوشه بعيدة عنه على تخوم الروم ! وفيهم يقاتلون أبا بكر وعدى لا يطلب إليهم إلا أن يقيموا على ما كانوا عليه في عهد الرسول !! وهل تراهم يعرضون أنفسهم وأبناءهم ونساءهم لما عُرف عن خالد من شدة وقسوة لغير شيء إلا أن يستبدلوا طليحة بأبي بكر ! ! .

تحدث بعضهم إلى بعض في هذا ، فأروا أن عدياً على الحق ، وأنه يخلص لهم الرأي ويصدقهم النصيحة . عند ذلك توجهوا إليه بالقول : « إذن فاستقبل الجيش فسنهنيهم عنا حتى نستخرج من لِحق بالبزاجة منا ؛ فإننا إن خالفنا طليحة وهم في يديه قتلهم وارتهنهم » . وفرح عدى بما بلغ من إقناعهم ، وكرّر راجعاً إلى السنح فاستقبل خالداً وقال له : « يا خالد ! أمسك عني ثلاثاً يجتمع لك خمسمائة مقاتل لتضرب بهم عدوك ، وذلك خير لك من أن تتعجأهم إلى النار وتشتغل بهم » . ولم يكن خالد ليخفت عليه ، وهو الخبير النابغة في الحرب : أن انسلخ طيبي عن طليحة يضعفه ويفت

في عضده . لذلك أمسك ثلاثة أيام عن السير ، في حين عاد عدى إلى قومه طليحة وتملغ من طلحة وتعود إلى الإسلام وتقاتل مع خالد بن الوليد قبل أن يهاجموا طليحة . وراقت هذه الحجّة طليحة ، فتركهم ينصرفون إلى طي . فلما تحدثوا إلى قومهم وتحدث إليهم قومهم برأى عدى اقتنعوا وعاد عدى بإسلامهم إلى خالد .

وارتحل خالد نحو الأنسر يريد جند يلة . وتعرض له عدى كره أخرى فقال له : « إن طليحاً كالطائر ، وإن جديلة أحد جناحي طي ، فأجلى أياماً لعل الله أن ينتقم جديلة كما انتقم الغوث » . ولم يتردد خالد في إجابته إلى ما طلب ، فذهب إلى جديلة ، فلم يزل بهم حتى يابعه ، فجاء خالد بإسلامهم ، ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب . يقول المؤرخون : فكان عدى خير مولود ولد في أرض طي وأعظمه عليهم بركة .

طليحة يصبر مع ذلك على مقاومة المسلمين

بلغت أنباء طي وجند يلة طليحة وهو فيمن بقي معه بالبخانة . ولست في حاجة إلى أن أذكر ما وهنت هذه الأنباء من عزمه وأضعفت من قوته . لكنه أصرّ مع ذلك على موقف المقاومة إذا هوجم . وما كان له أن يفعل غير ذلك ، وإلى جانبه عيينة بن حصن على رأس سبعمائة من فزارة ، وهو أشد الناس حنقاً على أبي بكر وحرصاً على توهين سلطان المسلمين . فعيينة هو الذي كان على رأس فزارة في غزوة الأحزاب ، وكان صاحب كتيبة من الكتياب الثلاث التي حاولت مهاجمة المدينة بعد اتفاق الأحزاب مع بني قريظة . ثم إنه هو الذي أراد الإغارة على المدينة بعد قاييل من هزيمة الأحزاب ، فصده رسول الله ، وحمله على الفرار في غزاة ذي قرد . فإن يكن قد أسلم بعد موافقه تلك ، فإنما أسلم مُدْعِماً للقوة التي لا تُغلب . أما وقد قبض الله رسوله إليه فلن يرضى عن سلطان أبي بكر . لن يستطيع طليحة إذن أن يرجع عن نبوته بعد أن غادرته طي و جديلة وهو يعلم أن رجوعه يقلب عليه عيينة ويثير عليه كل من حوله ، ويعرض حياته للخطر . فليقيم حيث هو ، ولينتظر خالد بن الوليد ومن معه . ثم ليكن الأمر بعد ذلك ما يكون .

وآن لخالد أن يتحرك لمقاتلة المرتدين ، فأرسل طليحة له عكاشة بن

مِحْصَنَ ، وثابت بن أقرم الأنصاري ، وكانا من سادات العرب وأبطالها ذوى الشوكة . ولبنى عكاشة وثابت حبالاً<sup>(١)</sup> أخا طليحة<sup>(١)</sup> فقتلاه . فلما بلغ مقتله طليحة خرج مع أخيه الآخر سلمة ينظران ويسألان . ولم يُسهل سلمةً ثابتاً حين رآه أن قتله . وثبت عكاشة لطيحة ، فاستعان بأخيه سلمة وقتلا عكاشة ، ثم رجعا أدراجهما .

طليحة خالد بن الوليد لقتال طليحة تقتل أخاه حبالاً

وأقبل خالد بن الوليد بالناس ، فلما رأوا صاحبَيْهم قتيلين جزعوا وقالوا : سيّدان من سادات المسلمين وفارسان من فرسانهم ! ورأى خالد ما بأصحابه من الجزع فأثر ألا يواجه بهم عدوهم حتى تطمئن نفوسهم . لذلك انحرف بهم إلى طيئ ، واستنفر جمعوناً عدى كل من استطاع أن يستنفره من رجاله . ورأى المسلمون عددهم يزداد وقوتهم تتضاعف بهذا العدد ، فطابت بالحرب نفوسهم ، فسار بهم خالد إلى بزاحة ليقضى على طليحة غير وانٍ ولا متردد .

وكانت قيس وبنو أسد متجهزين حول طليحة للقتال . قال قوم من الطائيين الذين انضموا إلى جنود خالد : سألنا خالداً أن نكفيه قيساً فإن بنى أسد حلفاؤنا . فقال : والله ما قيس بأوهن الشوكتين ، اصمدوا إلى أى القبيلتين أحبيتم . فقال عدى : لو ترك هذا الدين أسرى الأذى فالأذى من قومي لجاهدتهم عليه ، أفأنا أمتنع عن جهاد بنى أسد لحيلفهم ! لا لعمر الله لا أفعل ! فقال له خالد : إن جهاد الفريقين جميعاً جهاد . لا تخالف رأى أصحابك ، امض إلى أحد الفريقين ، وامض بهم إلى القوم الذين هم لقتالهم أنشط . وكذلك قاتلت طيئ قيساً ، وقاتل سائر المسلمين بنى أسد .

الطائيون  
بقاتلون قيساً

وكان عيينة بن حصن هو الذى يقود المعركة فى جانب طليحة فى حين كان طليحة يقيم فى بيت من الشجر ملتجئاً فى كساء له يتنابأ للناس . فلما حمى وطيئ الحرب ورأى عيينة قوة خالد والمسلمين كثر على طليحة يسأله : هل جاءك جبريل بعد ؟ قال : لا . فرجع عيينة فقاتل ، حتى إذا ازداد وطيئ الحرب ضراماً كثر راجعاً إلى طليحة يقول : لا أبالك ! أجاهك جبريل بعد ؟ قال :

عيينة بن حصن  
يقود المرتدين  
وطليحة يتنابأ لهم

(١) هكذا فى كتاب الكامل لابن الأثير ، ولكن الذى فى الطبرى والقاموس وغيرهما أن حبالاً هو ابن سلمة بن خويلد ، فهو ابن أخى طليحة لا أخوه .

لا والله . قال عبيدة : حتى متى ! والله لقد بلغ منا . ثم إنه رجع إلى الوطيس فرأى خيل خالد تكاد تحيط به وبأصحابه ، فرجع إلى طليحة فترجماً يكرر : هل جاءك جبريل بعد ؟ قال : نعم . قال : فإذا قال لك ؟ قال طليحة : إنه قال لي : « إن لك رحماً كرحاه ، وحديثاً لا تنساه » . ولم يمالك عبيدة حين سمع الهذر أن صاح : قد علم الله أن سيكون حديث لا تنساه . ثم نادى في قومه : انصرفوا يا بني فإِنَّه كذاب ! .

وانصرف الناس يُؤلُّون الأدبار . ومرّ قوم بطليحة ينادونه : ماذا تأمرنا ؟ وكان طليحة قد أعد فرسه عنده وهياً بعيداً لامرأته النَّوَّار . فلما بَصُرَ بالناس يَغشَوْنَه وينادونه قام فوثب على فرسه ثم حمل امرأته ونجا بها ، وهو يقول : « من استطاع أن يفعل منكم مثل ما فعلت وينجو بأهله فليفعل » .

طليحة يفر إلى الشام ويعود إلى الإسلام

كانت هذه خاتمة المقاومة التي حاول هذا المنتهي أن يثبت بها لأبي بكر ، بل كانت هذه خاتمة نبوته ؛ فقد لحق بالشام وكذبه من قالوا من قبل بنبوته . واستقر المقام بطليحة في كسِّب فنزل بها ، وعاد إلى الإسلام حين باغته أن القبائل التي تابعته قد عادت إلى الدين القيم . وخرج بعد ذلك إلى مكة معتمراً في خلافة أبي بكر ، فرجَّ بجناب المدينة ، فذكر بعضهم لأبي بكر مكانه ؛ فقال : « ما أصنع به ! خلِّوا عنه فقد هداه الله للإسلام » .

ولما استخلف عمر بن الخطاب أتى طليحةُ يبأيعه ؛ فقال له عمر : أنت قاتل عكاشة وثابت ! والله لا أحبُّك أبداً ! قال : يا أمير المؤمنين ، ما يهملك من رجلين أكرمهما الله بيدي ولم يُهنئني بأيديهما ؛ فرضى عمر ببيعته ، ثم قال له : يا خُدَّع ما بقي من كهانتك ؟ قال : نفخة أو نفختان . ثم رجع إلى قومه فأقام بينهم ، حتى خرج إلى العراق فأبلى بها مع المسلمين أحسن بلاء .

انصرف عبيدة بن حصن في قومه من بني قَرَارة وأعلن على ملأ من الناس أن طليحة كذاب . وفرّ طليحة على فرسه واصطحب امرأته النَّوَّار ونصح للناس أن يفرّوا . أفكان ذلك آخر النضال بين خالد بن الوليد والقبائل التي وقفت في صف طليحة ، وبينه وبين القبائل المرتدة في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة ؟ قد يتبادر ذلك إلى الذهن ، وبخاصة إذا عرفت أن بني أسد قوم طليحة عادوا إلى الإسلام ولم يكن قد أصيب في القتال منهم أحد . لكن الواقع أن خالداً

خالديتي بالبزاخة  
يقاتل فلول  
القبائل المرتدة

بقي في عسكره بالبزاخة شهراً كاملاً ، وأنه قاتل من فلول القبائل مَنْ بقي على رِدَّتِهِ ، ومن اجتمع حول أم زِمْلٍ يمالئها على عصيان أبي بكر وعلى الردة ؛ كما قتل من اعتدى على المسلمين بالقتل ، وبعث إلى المدينة بمن خرجوا على خليفة الرسول أمثال قُدرّة بن هُبَيْرَة ، والفجاءة السُّلَمي ، وأبو شَجْرَة بن عبد العزّي السُّلَمي . فدخلوها أسرى حتى أنفذ أبو بكر فيهم أمره .

السبب في إصرار  
هذه القبائل  
على ردتها

يحمل بنا قبل أن نقص نبأ أم زِمْلٍ وسائر المرتدين من فلول جيش طُليحة ، أن تقف هنيهة وأن نسأل : ما بال هؤلاء القوم لم يرجعوا إلى الإسلام كما رجح بنو أسد قوم طليحة وأعرف الناس به ؟ ! أفلا يقتضيهما العقل بعد ما تبيّنوا كذبه أن يكونوا مع المؤمنين بنوة محمد ورسالته ؟ لقد أسلفنا جواباً على مثل هذا السؤال . فأكثر هؤلاء العرب إنما أذعنوا لنبوة محمد ولم يؤمنوا بها . وكثير منهم من رأى عبادة الأصنام هزواً فعدل عنها إلى عبادة الواحد الأحد . لكنهم رأوا فيما فرضه عليهم محمد من التكاليف بحكم هذه العبادة ما لا تظمن إليه طبايعهم ، فرأوا أن من الحق لهم أن يتحللوا منه . وقد صارحوا أبا بكر بهذا في أمر الزكاة ؛ لأن حب الناس المال أقوى في نفوسهم من كل شيء غيره . لكنهم كانوا يودون لو تحلّلوا من الصلاة ومن سائر التكاليف التي فرضها الإسلام عليهم . وهم إنما اتبعوا طُليحة ، واتبعوا مسيلمة ، واتبعوا غير هذين ، ليحطّوا عن عواقبهم ما فرضه الإسلام عليهم . فإذا ثبتوا بعد فرار طليحة وأرادوا مواجهة خالد فذلك لأنهم يأملون في نصر يجعل أبا بكر يصلحهم على النزول عن بعض هذه التكاليف ويحقق لهم ما كانوا يرجونه من مصانعة طُليحة .

وتمَّ سبب آخر يتصل بنفسية البدو والأعراب ومن إليهم جعلهم لا ينفصون بفرار طليحة . فقد كانت بينهم وبين المهاجرين والأنصار ثارات قديمة من عهد الرسول تناسوها حين تغلب الرسول عليهم فأذعنوا لسلطانه وأظهروا الرضا بأمره . وإنما كان شأنهم في ذلك شأن المغلوب يرضى كارهاً ، فإذا أتيت له فرصة للثأر اقتنصها ولم يفتها . وهذه فرصة تهيأت تُعيد للأذهان يوم الأحزاب وغزوة الخندق . ولقد كانت المدينة مُوشكة أن تفتح أبوابها للأحزاب لولا الريح الصرصر العاتية التي جعلتهم يولون منها فراراً ويمتلثون رعباً . فليتهبتوا

هذه الفرصة التي أتاحتها المقادير لمواجهة خالد وليثبتوا له ، لعلمهم يكونون أحسن حفظاً مما كانوا على عهد محمد ، ولعلمهم يستعيدون لقبائل البادية ذلك الاستقلال العزيز عليهم بعد أن تقلص ظلُّه أو كاد .

ولو أن القبائل كلها حركتها هذه العواطف البدوية لدقَّ موقف خالد والذين معه . لكنك قد رأيت طيئناً تنحاز مع من انحاز إلى طليحة : ثم لا تلبث حين يخاطبها عدى بن حاتم أن تعود إلى الإسلام ، وأن تنضم إلى خالد ، وأن تحارب في صفه ، وأن تُدخل على طليحة من الفرع ما كان بين الأثر في هزيمته ، ولقد حدث مثل ذلك بعد أن فرَّ طليحة وانخدل عبيسة في بني فزارة . وكانت بنو عامر تُقدِّم للردَّة رجلاً وتؤخر أخرى تنتظر ما يصير إليه أمر قيس وبنى أسد . فلما هزمهم خالد ودارت عليهم دائرة السوء ، أقبلت بنو عامر يقولون : ندخل فيما خرجنا منه . وبابعهم خالد على ما بايع عليه أهل البزاحة من أسد وغطفان وطيئ قبلهم . فكان لعودهم إلى الإسلام أثره فيمن سواهم من القبائل ، كما كان لعود طيئ إلى الإسلام أثره في طليحة ومن انحازوا إليه .

بطش خالد بالذين  
قتلوا المسلمين

ثم إن خالد أخذ الذين قتلوا المسلمين من مختلف القبائل بشدة أورثت القلوب الرعب . فهو لم يقبل من غطفان وهوازن وسليم وطيئ حين وادعهم إلا أن يجيئوه بالذين قتلوا وحرقوا ومثلوا وعدوا على المسلمين الذين كانوا بينهم حين ردتهم . فلما جرى بهم صفع عن الأذنان ، وأخذ الزعماء منهم ، وبينهم قرة بن هبيرة ، فأوثقهم ؛ ومثل بالذين عداوا على المسلمين ، فأحرقهم بالنيران ، ورمى بهم من الجبال ، ونكسهم في الآبار ، ورضخهم بالحجارة ، وجعلهم عبرة لمن يعتبر . أما قرة بن هبيرة وعبيسة بن حصن فبعث بهما مع طائفة من الأسرى إلى أبي بكر ، وكتب إليه يقول : « إن بنى عامر أقبلت بعد إعراض ودخلت في الإسلام بعد ترضص . وإنى لم أقبل من أحد قاتلى أو سالى شيئاً حتى يجيئوني بمن عدا على المسلمين . وقد قتلت المعتدين كل قتلة ، وبعثت إليك بقرة وأصحابه » .

ولم تأخذ أبا بكر في الذين قتلهم خالد شفقة أو رحمة ، بل رأى فيهم

أعداء الله وأعداء رسوله وأعداء دينه الحق ، فكتب إلى خالد يقول : « ليزدك ما أنعم الله به عليك خيراً . واتق الله في أمرك ؛ فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . جيد في أمر الله ولا تننين . ولا تظفرون بأحد قتل المسلمين إلا قتلته ونكسنت به جبهة » ، ومن أصبت من حادّ الله أو صادّه ممن ترى في قتله صلاحاً فاقتله . ذلك ما كتبه أبو بكر رقيق القلب لين الطابع إلا فيما يغضب الله ورسوله . فلما بلغ كتابه خالداً أمعن في سياسة الإرهاب التي بدأها . وطال مقامه على اليزاخة شهراً يصعد عنها ويصوب إليها في طلب المعتدين على الإسلام والمسلمين ، فمنهم من أحرق ، ومنهم من رى به من رعوس الجبال ، ومنهم من رجّم بالحجارة .

أبو بكر يقر  
سياسة خالد

على أن أبا بكر اتخذ في معاملة الأسرى الذين جاءوا إلى المدينة سياسة ليست كسياسة خالد بأساً وشدة . فقد رأيت ما كان من عيصينة بن حصن ومخالفته طليحة وقتاله المسلمين . وقد جاء مع قرة إلى المدينة في الأسرى ويدها مجموعتان بجبل إلى عنقه . وكان غلمان المدينة ينخسونه بالجرید ويقولون له : أيّ عدوّ الله ، أكفرت بعد إيمانك ! فيقول : والله ما كنت آمنت بالله قط . ومع ذلك تجاوز عنه أبو بكر وحقن له دمه ، فاتتني بذلك شره وشر بني قزارة معه .

لكنه يحقن دم  
الأسرى الذين  
جاء بهم إلى  
المدينة

أما قرة بن هبيرة فكان في بني عامر . وقد مر به عمرو بن العاص عائداً من عمان إلى المدينة فنزل عليه ، فرآه وقومه يقدمون للردة رجلاً ويؤخرون أخرى . فلما أراد عمرو الرحلة خلا به قرة فقال : « يا هذا ، إن العرب لا تطيب لكم نفساً بالإتاوة . فإن أتم أعفيتموها من أخذ أموالها فستسمع لكم وتطيع ، وإن أبيتم فلا أرى أن تجتمع عليكم » . وأجابه عمرو : « أكفرت يا قرة ؟ ! أتواعدنا بالعرب وتخوفنا بها ! » . فلما أرسل خالد قرة أسيراً إلى المدينة وجيء به إلى أبي بكر ، قال : « يا خليفة رسول الله ، إني قد كنت امرأ مسلماً ، ولى من ذلك على إسلامي عند عمرو بن العاص شهادة . قد مرّ بي فأكرمته وقرّيته ومنعته » . فدعا أبو بكر عمراً وسأله عن قرة وأمره ، فقص عليه الخبر ، حتى إذا انتهى إلى أمر الصدقة وما قال عنها اعترضه قرة قائلاً : حسبتك

قصة قرة بن هبيرة

يرحمك الله ! . قال عمرو : لا والله ، حتى أبلغ له كل ما قلت . فلما أتم عمرو كلامه ابتسم أبو بكر وتجاوز عن قرّة وحقق دمه .

لم تكن سياسة الصفح سياسة هوادة أو تردد من أبي بكر ، بل كان المقصود منها تسكين الثارات ما كان في تسكينها للإسلام والمسلمين خير . أما فيما خلا ذلك فلم يكن اللين يعرف إلى قلب أبي بكر سبيلا ما اتصل الأمر برسالة محمد . كان علقمة بن علاثة من بني كلب قد أسلم ثم ارتد في زمن الرسول ولحق بالشام . فلما توفى محمد أقبل مسرعاً حتى عسكر في بني كلب . وبلغ ذلك أبا بكر ، فبعث إليه القعقاع بن عمرو وأمره أن يسير حتى يغير عليه لعله أن يأخذه أو يقتله ، وقال له : « واعلم أن شفاء النفس الخوض فاصنع ما عندك » . وخرج القعقاع في رجاله ، فلم يثبت له علقمة وفرّ راجحاً ، وأسلمت امرأته وبناته ومن أقام من الرجال ، وجحدوا أن يكونوا مالثوه . ورجع علقمة إلى أبي بكر تائباً ، فقبل منه وحقق دمه ؛ لأنه لم يقاتل المسلمين ولم يقتل منهم .

تصة علقمة  
ابن علاثة

مقتل الفجاءة  
السلمي

لكنه لم يقبل من الفجاءة إياس بن عبد يا ليل ولم يحقق دمه . فقد قدم الفجاءة هذا على أبي بكر فقال له : أعينني بسلاح ومُرني بمن شئت من أهل الردّة . فأعطاه سلاحاً وأمره بما شاء أن يأمره به . لكن الفجاءة شتّها غارة في سائيمٍ وعامر وهوازن على المسلمين والمرتدين على سواء ، وقتل من المسلمين من قتل . عند ذلك أرسل أبو بكر طريفة بن حاجز في رجال قاتلوا الفجاءة ومن معه وجاءوا به أسيراً . فأمر أبو بكر فأوقدت له نار في مصلى البقيع على حطب كثير ، ثم رمى به فيها فمات حرقاً . ولو لم يقتل الفجاءة من المسلمين من قتل لسا أصابته هذه الميتة القاسية التي أسف أبو بكر لقسوتها من بعد وتمنى لو لم تكن كذلك .

تصة أبي شجرة  
ابن عبد العزى

قبل أن نختم هذا الفصل بحديث أم زمل نُورد قصة أبي شجرة بن عبد العزى ؛ فهو بحديث عبيدة وقرّة وعلقمة أشبه . كان أبو شجرة هذا ابن الحنساء الشاعرة صاحبة المرائي الفياضة في أخيها صخر ، وكان هو شاعراً مثلهما وقد لحن بأهل الردّة وجعل يقول الشعر في تحريضهم على المسلمين وقتالهم .

وكان مما قاله في ذلك قصيدة جاء فيها :

فَرَوَيْتُ رَمَحِي مِنْ كَتِيْبَةِ خَالِدٍ وَإِنِّي لِأَرْجُو بَعْدَهَا أَنْ أَعْمَرَ

فلما رأى تحريضه على خالد لم يُشمر ورأى الناس يرجعون إلى الإسلام رجع إليه ، وقد قبل منه أبو بكر وعفا عنه فيمن عفا عنهم . فلما كانت خلافة عمر جاءه أبو شجرة وهو يعطى المساكين من الصدقة يقسمها بين الفقراء ، فقال : يا أمير المؤمنين أعطني فأني ذو حاجة . قال عمر : مَنْ أنت ؟ فلما عرفه قال : أَيْ عَدُوَّ اللَّهِ ! أَلَسْتُ الَّذِي يَقُولُ :

فَرَوَيْتُ رَمَحِي مِنْ كَتِيْبَةِ خَالِدٍ وَإِنِّي لِأَرْجُو بَعْدَهَا أَنْ أَعْمَرَ

ثم جعل يعلوه بالدرة في رأسه حتى طار عَدُوًّا وَإِلَى نَاقَتِهِ فَارْتَحَلَهَا عَائِدًا إِلَى قَوْمِهِ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ .

تداول الناس أنباء أبي بكر وعفوه عن رجوع إلى الإسلام بعد رده ، فسكنت حدة القبائل التي ناصرته طليحة ثم عادت إلى الإسلام حين هزمه خالد بن الوليد . لكن فلولا من غَطَطْنَا وَطِيَّ وَسَلِّمَ وَهَوَازَنَ وَغَيْرَهَا تَجَمَّعَتْ وَاجْتَمَعَتْ إِلَى أُمِّ زَيْمَلٍ سَلْمَى بِنْتُ مَالِكٍ وَعَاهَدْتَهَا أَنْ تَقْفَ وَإِيَابَهَا فِي وَجْهِهِ حَتَّى الْمَوْتِ . وَلَا شَكَّ أَنَّ قَدْ كَانَ لِهَذِهِ الْفُلُولِ ثَارَاتٍ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ ، لَمْ تَسْكُنْ مِنْهَا الْهَزِيمَةَ وَلَا سَكَّنَ مِنْهَا عَفْوَ أَبِي بَكْرٍ ، هِيَ الَّتِي حَفَزَتْهَا إِلَى التَّجْمَعِ وَالتَّعَاهُدِ عَلَى قِتَالِ الْمُسْتَيْثَسِ . وَمَا بَقَاؤُهَا بَعْدَ فِرَارِ طَلِيحَةَ وَانْكَشَافِ كَذِبِهِ لَوْلَا هَذِهِ الثَّارَاتُ وَتَحْرِكُهَا فِي نَفْسِهَا ! وَكَانَ لِأُمِّ زَيْمَلٍ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ ثَأْرٌ لَمْ يَنْدَمِلْ جَرْحُهُ رِغْمَ مَرَّ السِّنِينَ ، فَكَانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ تَجْتَمِعَ هَذِهِ الْفُلُولُ حَوْلَهَا وَأَنْ تَتَّخِذَ مِنْ ثَأْرِهَا عِلْمًا وَلِوَاءَ لِثَارَاتِهِمْ جَمِيعًا .

الفلول التي  
تجمعت إلى  
أم زمل

وَأُمُّ زَيْمَلٍ هَذِهِ هِيَ بِنْتُ أُمِّ قِرْفَةَ الَّتِي قُتِلَتْ أَيَّامَ النَّبِيِّ أَشْنَعُ قِتْلَةً . فَقَدْ خَرَجَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ يَوْمَ ذَاكَ إِلَى بَنِي فِزَارَةَ فَلَقِيَهُمْ بِوَادِي الْقُرَى فَأَصَابُوا رِجَالَهُ ، وَأَصِيبٌ هُوَ بِجَرَحٍ مِمَّتْ حُمِلَ عَلَى أَثَرِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلَمَّا بَرَأَ رَدَهُ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى بَنِي فِزَارَةَ فِي جَيْشٍ فَقَتَلَهُمْ وَأَصَابَ فِيهِمْ وَأَسْرَمَهُمْ . وَكَانَتْ أُمُّ قِرْفَةَ فَاطِمَةُ بِنْتُ بَدْرِ بْنِ الْأَسْرِيِّ . وَكَانَتْ هِيَ الَّتِي تَحْرُضُ قَوْمَهَا فِي الْمَوْقِعَةِ الْأُولَى

من هي أم زمل  
بنت أم قرفة

التي أصيب فيها زيد؛ فلما ظفر بها أمر بقتلها فقتلت قتلاً عنيفاً. قيل إن كل ساق من ساقها شُدَّتْ إلى بعير ثم دفع كل بعير إلى ناحية فتمزقت. وسُبيت ابنتها أم زمل، فوقعت لعائشة أم المؤمنين فأعتقتها، فأقامت عندها زمناً ثم رجعت إلى قومها. وقد بقي مقتل أمها أمام عينيها يُقَيِّضُ مضجعها ألاّ تجدد إلى الثأر له الوسيلة. فلما كانت الردة ارتدت ووجدت من فلول هذه القبائل عونها على أن تأخذ بثأرها لتهدأ نائرتها وتسكن حفيظتها.

وكانت أمها أم قرفة في عزّة ومكانة من قومها. كانت عمّة عيينة بن حصن، وكانت زوج مالك بن حذيفة، وكان لها منه أبناء تعتز بهم في بني فزارة. وكان لها جمل تخرج عليه في طليعة قومها إذا خرجوا ليغنموا من قبيلة أخرى. فلما ماتت بقي هذا الجمل لابنتها أم زمل. وكانت ابنتها في مثل عزاها، وكان لها من المكانة في قومها ما كان لأمها. فلما اجتمعت حولها فلول القبائل التي قاتلت أبا بكر وخالداً ركبت جملها وسارت بينهم وجعات تدعوهم لحرب خالد وتشجعهم؛ واجتمع مع هذه الفلول كل شريد وكل مضيق عليه، حتى استغلظ أمرها وعظم شأنها. فلما باغ ذلك خالداً وهو فيما هو فيه من تتبع الثائرين وأخذ الزكاة ودعوة الناس وتسكينهم، سار إليها يقاتلها.

خالد يقاتل  
أم زمل ويقتلها

والتقى الجمعان وحسى وطيس القتال واشتدت الحرب، وأم زمل على جملها تحرض رجالها وتدفعهم إلى المعركة، فيندفعون مستبسلين لا يبألون، حتى لقد أبيدت منهم بيوت بأسرها. ورأى خالد بأس هذه المرأة وشدها واسماتتها في محاربه فجعل مائة من الإبل لمن ينخس جملها. واندفع فوارس المسلمين نحوها، فإذا من حولها الرجال الأشداء يدافعون عنها ويموتون دونها. ولقد مات حول جملها مائة رجل قبل أن يستطيع فرسان المسلمين الوصول إليه. فلما وصلوا إليه عقروه وقتلوه وقضوا بذلك على فتنها. فقد فنت الرجال حقاً بقوتها وعزها وشجاعتها وشدة تحريضها لهم. ولم تلبث هذه الفلول حين رأوا جملها يعقر ورأوها تقتل أن فترت عزيمتهم وتشتت جمعهم، ففروا مولين الأدبار لا يعقبون. بذلك خبت نار الفتنة وقضى على الردة في الشمال

الشرق من شبه الجزيرة . وما عسى أن يبقى منها وقد فرّ رعووسها أو طاحت رعووسهم فلم تبق منهم باقية ! .

موقف المرتدين  
بعد هزيمة طليحة  
وأنصاره

أو لم يكن هذا المثل الذي ضربه أبو بكر يكتفى العرب كي يرجعوا في سائر الأنحاء من شبه الجزيرة إلى الإسلام ! . لقد رأوا جنوده تسير إليهم من كل صوب ، يقصد كل لواء منها إلى حيث أمره خليفة رسول الله . وقد ترامت إليهم أنباء خالد بن الوليد وعرفوا مصير طليحة ؛ لكنهم أبوا مع ذلك أن يُدعَوا . إنهم رأوا نبيّ قریش ينشر في العرب لواءه ويمد عليهم سلطانه ، فلم لا يكون لكل قبيلة نبيّ يرد عنها قريشاً إن لم ينشر في مختلف القبائل لواءها ! ونسيت القبائل ونسى الذين ادّعوا النبوة فيها أن محمداً قام في قریش يدعوها إلى الله لا يريد فيها سلطاناً ولا يتغنى منها جزاءً ولا شكوراً ، وأنه قام بأمر ربه ، ففضى عشر سنوات في جهاد ، أى جهاد ، يؤذيه أهله وتُناصبه مكة كلها العداوة ، وتعرض حياته وحياته من اتبعوه للخطر ، ويأتمر به خصومه ليقتلوه ، ويخرجه قومه من دياره مهاجراً إلى المدينة ، حتى أذن الله لدينه الحق أن ينتشر بين العرب ، وجاءت الوفود من كل صوب تعلن إلى النبيّ إسلامها . نسى الذين ادعوا النبوة هذا كله ، وحيثل إليهم أن بلوغ الغاية التي بلغها محمد أمر يسير ، كما نسوا أن محمداً إنما بلغها بالدعوة إلى الحق ، وأنهم يدعون النبوة زوراً وبهتاناً . لذلك لم يكفهم أن طهر أبو بكر شمال شبه الجزيرة من رجس الردة ليثوبوا إلى رشادهم ، بل أخذت أهل الجنوب العزة بالإثم ، وادّكروا ما كان بينهم وبين الحجاز من قديم الخصومة ، وما كان لآبائهم فيه من غزوات توجتتها أكابيل النصر . أما وقد أصروا على العناد في ردتهم ، فلم يكن بدّ من أن يُردّوا عنها إلى الإسلام أو يبعوا بخزيها ويؤدوا حياتهم ثمناً لها .

فلينتقل خالد إذن من البزاحة إلى البطح ، ثم ليشتغل بعد البطاح إلى اليمامة ، فقد خط القدر في لوحه أن يرد سيفه المرتدين إلى الحق . وما خطّ في لوح القدر لا محالة نافذ .